تعزيز السياحة وحماية أوابد الكتلة الكلسية

مارك بارانسكي

تعريب: هالة مصطفى

تعتبر الأوابد المعمارية العائدة للعصر الروماني المتأخر، الواقعة في الكتلة الكلسية غربي حلب، مجمعات أثرية فريدة في منطقة البحر المتوسط، ويثبت العدد الكبير للمواقع هناك أهمية هذه المنطقة وعلاقاتها التجارية مع حلب والمدن الساحلية. أما الكنائس والقرى والحقول التي هجرت في أواخر العصور القديمة فهي مدهشة وذات قيمة علمية للدراسات التاريخية، ذلك لأنها بقيت محفوظة بحالة جيدة وبسبب تعقد الأوجه المتعددة التي تتجلى من خلالها الحياة الأسرية والبلدية. وفي سياق عملية تمدن محيطها، ومد شبكة الطرق التي تحمل شارات للدلالة عليها ازدادت أهميتها، تماماً مثلما كان لبعدها النسبي وقلة استيطان محيطها أثرهما في حفظها دون تشويه.

أدى التطور الديناميكي لسورية في نهاية القرن العشرين إلى خلق وضع جديد كلياً، قد يؤثر على حالة الأوابد تأثيراً بيناً. فالأمثلة عن تلف الصروح الأثرية في كثير من البلدان والتي تؤكد صحة افتراضنا هذا، كثيرة. ولابد أيضاً من أخذ التوسع الزراعي وتنامي السياحة على محمل الجد، إذ أن معظم المواقع يمكن وصول السيارات إليها حالياً، ويستطيع آلاف السياح أن يدخلوها، علماً أن حرية الدخول غير المقنن تشكل خطراً جسيماً. وبشكل عام، تنال الأوابد المثيرة للإعجاب حق قدرها، في حين تبقى المواقع الأقل شأناً التي لا حماية مناسبة لها، ولا إدارة، عرضة للسلب والتلف التدريجي. ومصر، حيث معظم المواقع التي لا يمكن حمايتها بالصورة الصحيحة خير مثال على ما نقول.

ويتبين من الممارسة العامة أن تمويل البنى التحتية للسياحة أسهل من تمويل عمليات حفظ الأوابد، التي تعطي الأولوية لابراز المواقع المدهشة، علماً أن ذلك غير كافٍ لحفظها بصورة صحيحة. وقد كانت النتائج، في معظم الحالات، مغايرة لما كان متوقعاً، حيث أدت أعمال الحفظ إلى إبطاء (تأخير) التدهور أكثر مما أدت إلى إيقافه.

تنصح معاهد ومراكز الحفظ الدولية بصيانة البقايا الأثرية في مواقعها. وإعادة تشييدٍ جديدة لنماذج الصروح وإنشاء المتنزهات الأثرية هي اتجاهات أخرى شائعة جداً هذه الأيام بسبب جاذبيتها السياحية. لكن تحقيق مفاهيم الصيانة الآنفة الذكر هو غاية في الصعوبة بسبب المدخرات المالية الهائلة التي لابد منها لتنفيذ هذه الأعمال. والحالة الخاصة بمنطقة الكتلة الكلسية، التي يلزمها الكثير من أعمال الصيانة، فهي تحول إلى حد ما دون تنفيذ الطرق التقليدية. يمكن القيام بهذا العمل الجبار فقط في حال وضع برنامج لأعمال الصيانة يرتكز على تفعيل دور الجماعات المحلية ويكون فيه الدور الموجه والمحفز للسلطات الحكومية والمحلية جوهرياً لضمان النجاح في المستقبل. ويمكن للتعاون مع العلماء السوريين والمشاركة الدولية أن يضمن الحصول على النتيجة الأمثل من وراء هذا المشروع.

▪ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

تختلف فكرة المشروع هذا تماماً عما هو معروف من متنزهات أثرية مثل سانتس في ألمانيا أو القرية المصرية الجذابة سياحياً في القاهرة. لأنه يهدف إلى تنظيم إدارة للمواقع ذات طريقة إيجابية في فهم الأوابد. وهذا ما يمكن تحقيقه على مستويين: بجعل المواطنين المحليين ينخرطون في أعمال الصيانة وبتكييف المباني المرممة كمشاغل تنجز فيها الحرف والمهن القديمة. وينبغي أن يفيد استكمال المشروع في حفظ الأوابد المهددة وبزيادة الوعي الاجتماعي بمفهوم حماية الصروح، وأن يكون أيضاً لخلق فرص عمل جديدة وإنشاء مراكز علمية للأركيولوجيا التجريبية.

ينبغي أن تقام سلسلة متنزهات أثرية في قلعة سمعان (دير السمعان) داحس وقلب لوزة وسرمدا وفي مواقع أخرى، حيث يجب أن يكون لكل متنزه سماته الفردية الخاصة، وأن تكيف بعض الصروح التي أعيد تشييدها كنماذج مطابقة جزئياً للأصل وبعيداً عن البقايا الأثرية كمشاغل لاحياء منتجات النسيج والجلد والحدادة التي تستخدم الطرق والتقنيات القديمة، يمكن أيضاً إحياء إنتاج زيت الزيتون باستخدام المعاصر القديمة. ويمكن لهذه المشاغل أن تؤدي دور مراكز تدريب يستطيع فيها الآثاريون بالتعاون مع الحرفيين المحليين أن يجربوا إنتاج نسخ مطابقة عن السجاجيد القديمة والمجوهرات والأحذية والملابس. وتطوير مراكز ثقافية - علمية تُمكن الدارسين من سورية والبلدان الأخرى من أن يتعاونوا مع حرفيين مختلفين يبدو مثيراً للاهتمام. فالمراكز التي تفتح للطلبة ذوي الاختصاصات المختلفة، الآثاريون، المعماريون، الفنون الجميلة، ستكون فرصة لهم لممارسة مهاراتهم وتعلم الحرف والتقنيات القديمة بأفضل الطرق. وقد تكون مشاهدة الرجال منكبين على عملهم مسألة جذب سياحي كبيرة مع إمكانية المشاركة الشخصية بهذه الفعاليات. أما القطع اليدوية الصنع فتباع كهدايا تذكارية. وتشكيل فرق البنائين المحليين والنجارين وقاطعي الحجارة الذين يستخدمون الأدوات والتقنيات القديمة سيكون له الدور الحاسم في تنفيذ أعمال ترميم المباني. وسيعمل هؤلاء بمساعدة وتحت إشراف مرمم معماري مختص. وفي الفترة الأولى من ٢ - ٣ سنوات سيكرس نشاطهم للتدرب على أعمال الصيانة ولتشرب أسسها وذلك بممارسة عملهم في صروح ليست بذات شأن. وتستثمر معرفتهم فيما بعد استثماراً شاملاً في أعمال صيانة أصعب وأكثر أهمية وسوف تفيد خبرتهم المكتسبة في تدريب فرق أخرى من أجل مواقع أخرى. إن أعمال الترميم المنفذة باستخدام التقنيات والأدوات والروافع القديمة ستكون أكثر جاذبية للزوار وسوف تُمكن من دراسة عمليات البناء ذاتها.

لفكرة علم الآثار التجريبي تاريخها في أوروبة فهنالك مواقع أثرية يجري تحويلها إلى مزارع أو قرى تجريبية. ففي بولونية - بيسكوبن، في ألمانية - موزومسدورف دوبل قرب برلين، في الدنمارك - ليجر قرب كوبنهاغن، في انكلترة مشروع مزرعة بتسر القديمة، وفي فرنسة جوفينكورت - داماري. ويمكن اكتساب الخبرة أيضاً في ويليامسبورغ الكولونيالية في الولايات المتحدة أو في مركز التدريب على الصيانة في فورت بروكهورست قرب غاسبورت في هامبشاير (انكلترة).

هنالك تشكيلة واسعة من خيارات الصيانة، بدءاً بإعادة تشييد نماذج مطابقة للأصل وانتهاء بإعادة بناء ما تهدم جزئياً أو كلياً، وكلها ممكنة التطبيق في مواقع الروابي الكلسية. لكن طريقة مزاولة الصيانة يجب أن تنتقى بشكل مناسب وفهمنا لأسس الصيانة مرن ويتوقف على الحالة التي آلت إليها الأبدة. ومفهومنا العام يقضي بالحد من استخدام المواد الجديدة مفضلاً عليها المواد التقليدية ولا يجيز للشبكات الحديثة، كتمديدات المياه والكهرباء أن تشوش أو تفسد البنية الأصلية للمبنى التاريخي والأرصفة القديمة، وهنالك الكثير من المعدات التكنولوجية الحديثة التي يمكن استخدامها في هذا المجال.

وبشكل عام، يمكن تكييف البيوت المهجورة لتؤدي وظائف وغايات عصرية. وسوف يكون لعمليات الترميم المتوازنة للبقايا الأثرية دوره الحاسم في نهاية المطاف. يمكننا التنوع الكبير للأبنية القديمة أن نختار المواضع حسب مقتضيات خاصة. إذ يمكن أن ترتب نُزل ومقاصف بسيطة، حيث يستطيع الزوار أن يستمتعوا بالأطعمة والمشروبات التقليدية في الظلال الباردة. ومن الجلي أنه لا ينبغي أن يكون هنالك مكان للإعلانات المشوقة أو النشاطات الاقتصادية الحديثة.